المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:08، العدد:01 (2024)، ص333 - 344

الأسير إمانويل دارندا في الجزائر (1640-1642) خادمًا وفيًّا للمسيحية ومحاميًا جريئاً عنها

The prisoner Emanuel D'Aranda in Algeria (1640-1642), a loyal servant of Christianity and a staunch lawyer for it

فاتح بلعمري
جامعة المسيلة (الجزائر)
Fateh.belamri@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024/02/17
تاريخ القبول:
2024/04/03

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الجزائر
- ✓ دارندا
- ✓ الأسرى
- ✓ المسيحية

الملخص:

تسلط صفحات هذا المقال الضوء على إمانويل دارندا(Emanuel d'Aranda) الذي خدم المسيحية بوفاء، وهو المنحدر من منطقة بروج البلجيكية، وقد عاش أسيرا في مدينة الجزائر بين سنتي 1640 و1642، بعد أن أطلق سراحه في عملية تبادل الأسرى كتب تأليفه: Les Captifs d'Alger d'après la relation de Emanuel d'Aranda jadis esclave à Alger (XVII^{ème} siècle) ، الذي حدثنا فيه عن قصص عديدة لأسرى تعرف عليهم في حمام علي بيتشين خصوصا، وفي مدينة الجزائر عموما، لكن المتصفح لهذا التأليف يجد صاحبه يجسد خدمة وفية للدين المسيحي والدفاع عنه بكل جرأة. **من هو إمانويل دارندا؟ ما هي محتويات تأليفه؟ فيم تمثلت خدماته الوفية للمسيحية؟ وهل كان صادقا أم عكس ذلك؟** هذا ما نود التعرف عليه.

Article info

Received:
17/02/2024
Accepted:
03/04/2024

Key words:
- ✓ Algeria
- ✓ D'Aranda
- ✓ Prisoners
- ✓ Christianity

Abstract:

The pages of this article shed light on Emanuel d'Aranda, who loyally served Christianity. He is from the Belgian region of Bruges. He lived as a prisoner in the city of Algiers between the years 1640 and 1642, after he was released in a prisoner exchange. Written by: Les Captifs Algeria d'après la relationship of Emanuel d'Aranda Jadis Esclave in Alger (XVIIème Siècle), in which he told us about many stories of prisoners he met in Hammam Ali Betchin in particular, and in the city of Algiers in general, but the reader of this writing will find its author embodying the service Loyal to the Christian religion and defending it boldly. Who is Emmanuel Darenda? What are the contents of his composition? What were his faithful services to Christianity? Was he honest or the opposite? This is what we would like to know.

مقدمة

ترك الأسرى الأجانب الذين عاشوا في الجزائر العديد من المصنفات والكتابات التي تترجم لسِيرهم ومحطات من حياتهم، فدوّنوا عن قصد ما عاشوه في الجزائر لبني جلدتهم، والأمثلة عنهم كثيرة وعديدة؛ أمثال الإسباني هايدو[1] (Haedo)، والألماني فندلين شلوصر[2]، والأمريكي جيمس ليندر كاثكارت[3] (J.Lender Cathcarte)، والنرويجي نيلسون موس[4] (N. Mose)، والإيطالي فيليبو باننتي[5](P. Pananti)....

اعتبارا أنّ ظاهرة الأسر كانت رافدا أساسيًّا من روافد المال والضغط الديبلوماسي بين العالمين الإسلامي والمسيحي، في هذا الإطار يندرج تأليف الأسير إمانويل دارندا (Emanuel d'Aranda) الذي عاش مدة سنتين في مدينة الجزائر بين 1640 و1642، وصادف العديد من الأسرى، فروى عنهم حوالي خمسين قصة في كتابه:

Les Captifs d'Alger d'après la relation de Emanuel d'Aranda jadis esclave à Alger (XVII^{ème} siècle).(E.D'Aranda, 2004, pp269-271.)

نختار منه القصص التي خدم فيها المسيحية بوفاء، والتي أظهر فيها حقده للإسلام والمسلمين على حد سواء. ولعل الأيادي الكنَسيّة قد تدخلت في تدوين هذا التأليف، وأعطته صِبغة دينية. من هذا المنطلق يجب تسليط الضوء على سيرة إمانويل دارندا، وعلى محتويات تأليفه الذي نعدّه في غاية الأهمية، **كيف كان ينظر دارندا للإسلام والمسلمين؟ فيم تمثلت خدماته المتعصبة للمسيحية؟ إلى أيّ مدى كان صادقا في نقل ما دوّنه عن مجريات الوقائع في الجزائر خلال القرن السابع عشر؟** هذا ما نودّ التعرّف عليه في هذه الورقة البحثية التي نأمل أن يستفيد منها الكثير من الباحثين.

1. التعريف بالكاتب إمانويل دارندا(Emanuel d'Aranda)

ينحدر إمانويل دارندا من عائلة إسبانية الأصل من منطقة أراغون (Aragon)، لكن مولده كان في بروج المدينة البلجيكية (Bruges) في سنة 1614، اقترن اسمه بالفخامة القنصلية للمدينة التي ولد وترعرع فيها، وكان من الممكن أن يسير على خطى أفراد عائلته، إلاّ أنّ القدر أراد له عكس ذلك، ألقي عليه القبض من طرف البحّارة العثمانيين المقيمين في الجزائر قريبا من ساحل إسبانيا في الشمال المسمى بريتاني في يوم 22 من شهر أوت سنة 1640، وعمره حينذاك قد تجاوز الخامسة والعشرين، لأنه كان ينوي التوجّه إلى إسبانيا لمشاهدة قشتالة وبعض القلاع هناك، كما كان يرغب في تعلم اللغة الإسبانية، وتحصّل على حريته بعد أنْ عاش في مدينة الجزائر مدة سنتين، أي في سنة 1642، تنقل خلالها بين حمام علي بيتشين[6] (Ali Pégelin) الذي كان يضم بين جدرانه 550 أسيرا، وقد نعته دارندا باسم جامعة الجزائر، وكذا منزل السيد شعبان غالان آغا[7]، وبيت محمد سليبي أويغا (Mohamed Celibi Oiga)، كما سكن في فندق مع كاتابورن مصطفى (Cataborne Mostafa)، وقام بالعديد من الأعمال داخل المدينة وخارجها في فترة أسره، فأتاحت له حياته وتجربته الجديدة إقامة الكثير من العلاقات خصوصا مع الأسرى الأوروبيين، وكان شاهد

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

عيان لبعض الوقائع التاريخية التي حدثت في مدينة الجزائر وفي محيطها القريب والبعيد على حد سواء.

2. التّعريف بالكتاب (Les captifs d' Alger d'après la relation de Emanuel d'Aranda jadis esclave à Alger (XVII^{ème} siècle)

طُبع كتاب إمانويل دارندا بعد أربع عشرة سنة من إطلاق سراحه؛ أي في سنة 1656، ومن حق المؤرخ أن يتساءل عن سبب التأخير في نشره، لأنه نُشر لأول مرة في بروكسل (Bruxelles) سنة 1656، والنسخة الأصلية التي يرجع تاريخ الموافقة عليها يوم 21 جويلية 1656، وضعت في شكل كتيب صغير وحملت العنوان التالي: (Relation/Delacaptivité/Et liberté/Du Sieur/Emanuel/De/Aranda/Mené esclave à Alger en l'an 1640,/Mis en liberté l'an 1642./ A Bruxelles,/Chez Jean (Mommart, impri/meur ordinaire des Etats de Barbant,/M.DC.LVI.

توالت بعدها عمليات نشر الكتاب بلغات عديدة؛ فرنسية، إنجليزية وفلمنكية في سنوات 1657، ثم في سنة 1662، وبعدها في سنة 1666، وفي سنة 1671، وقد يكون الكتاب منشورا بلغات أخرى نجهلها.

لا تزال الكثير من الألغاز تلف تأليف دارندا هذا، لأنه لا يوجد ما يشير إلى أن دارندا كان يحتفظ بمذكرات في فترة أسره كما فعل الأسير الإسباني سيرفانتس[8] (Servantes)، لكنّ الباحث يستطيع أنْ يستدلّ بما ورد في هذا الكتاب وفقا لما تمليه الحقائق التاريخية بعد المقارنة والتمحيص.

الكتاب الذي اخترنا منه نصوصا بعينها من تقديم الباحثة لطيفة الحصار زغاري (Latifa El Hassar-Zeghari) المولودة بفاس من عائلة مغربية، والمهتمة بالأدب القديم الإغريقي والتي تحمل دكتوراه في الأدب الفرنسي، حيث درست في كلية الآداب بالرباط تخصص لاتينية، ثم درست أيضا مدة عشرين سنة في كلية الآداب في جامعة الجزائر (فرنسية، إغريقية ولاتينية)، وكانت تقدّم محاضرات في المعهد الوطني للآثار والتراث بالرّباط. تكوينها الكلاسيكي واهتمامها بماضي المغرب دلنا على دراسة إفريقيا المسماة البربريسك (barbaresque)، وهذا الكتاب المهم دليل واضح على ما نقول. (E.D'Aranda, 2004, dernier page)

تناول دارندا في مستهل تأليفه هذا قصة أسره وحريته، ثم سلط الضوء على قدم مدينة الجزائر بملخص، وكيف سقطت هذه المدينة في سلطة الأتراك، وهو في هذا يختار المصطلحات لقلب المفاهيم والحقائق دون أن يذكر طلب سكانها حماية الإخوة بربروس الذي ذاع صيتهم في تلك الفترة، وهم عنده الأتراك وليس العثمانيين، ثم ذكر موقع مدينة الجزائر، قوتها وشرطتها، وقد أراد من خلال هذا العمل أن يماثل الأسير الإسباني هايدو (D.de Haedo, 2004).

بعدها أخذ يسرد قصص الأسرى، ولا بأس أن نذكر في هذا السّياق المناسب بعض العناوين التي تحدث فيها عن ذلك؛ قصة متدين إسباني أسير في الجزائر، شجاعة قبطان هولندي دافع عن نفسه ضد سبع سفن تركية، ثبات أسيرة مسيحية على إيمانها، أسيران تعيسان تم وضعهما في مطمور تطوان، رجل نبيل برتغالي

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

قبض عليه ونقل إلى مدينة الجزائر، حماسة متهورة وحماسة حكيمة، الأب كارم وعلي بيتشين، فرنسي أراد أن يتنكر لدينه ويصير تركيا إلا أنه بقي فرنسيا رغما عنه، وفاء زوج وخيانة زوجته، يجب ألا يثق العبد كثيرا في لباقة سيده، رجل متدين أنكر إيمانه لضعف وصار شهيدا بعد توبة، المهندس المرتد، الأمل المخدوع، تقوى شريرة لأسير إسلندي، الجشع المقنّع، الأسر الخيالي، الانتقام المروّع، حب الأتراك الشديد للذهب والنفاق المخادع.

من خلال هذه العناوين التسعة عشر يتضح بجلاء خدمة الأسير إمانويل دارندا للمسيحية وتعصبه لها، هذا من زاوية، وبعد الاطلاع على ما ذكره دارندا سيستنتج القارئ بأنه محام جريء عن ديانته من زاوية أخرى، وهذا جزء مهم في حديثنا، وهو يعكس ظاهرة الصراع الإسلامي المسيحي التي اشتدت وطأتها في الفترة الحديثة.

3. إمانويل دارندا خادمًا وفيًّا للمسيحية ومحاميًا جريئًا عنها

من القصص الكثيرة التي تبين خدمة دارندا للمسيحية وتعصبه لها، وأنه نصّب نفسه محاميا جريئا عنها، سنقدم البعض منها ونوجزها، وهي كالتالي:

1.3. قصة متدين إسباني أسير في مدينة الجزائر

حدثنا دارندا عن رجل إسباني متدين اسمه دومنغو (Domingo)، وبعد أن انخرط في سلك رجال الكنيسة سنة 1626 وصار قسا، إلاّ أنّ حياة التدين هذه لم تعجبه، فرحل إلى البرتغال وعمل في إحدى الحقول مدة صغيرة، إلا أنه لم يرغب في استكمال حياته كفلاح أو مزارع، غير عاداته الدينية بعادات دنيوية واستقر في العاصمة البرتغالية لشبونة (Lisbonne)، فيها تزوج وبدأ يرزق بالأولاد، بعدها أراد الانخراط في سلك الجندية والتوجه إلى البرازيل البلد الذي غزاه البرتغال حينذاك، ليعيل أفراد أسرته.

شرع دومنغو في الإبحار رفقة أفراد أسرته في سنة 1639، فوقعوا في الأسر لدى الأتراك، وأخذوا إلى مدينة الجزائر، ولكي يتجنب دومنغو حياة الأسر والعبودية بحث عن اليهود في المدينة وتوسل إليهم بأن يفتدوا زوجته وابنيه على اعتبار أنّ والديه يهوديان، – وأقر دارندا بجشع اليهود وبخلهم– وكان دومنغو يحسن التحدث بالعبرية (hébraïque)، فقال لحاخام اليهود بأن والديه مسجلان في سجل معبد البندقية (Venise)، وبعد أن تحقق اليهود والحاخام من احتيال دومنغو، قرروا عدم مساعدته.

لم يفقد دومنغو الأمل في الحصول على الحرية، فراسل رجلين من تنظيم افتداء الأسرى قدما من فالنسيا (Valence) الإسبانية على أمل افتداء زوجته وابنيه، وحقق ما رغب فيه، حيث رحلت زوجته وابنيه مع الأسرى المفتدين، بينما سكن هو بيت رجل شريف يسمى شعبان غالان آغا (Saban Galan Aga).

أحب دومنغو أسيرة مسيحية كانت تسكن معه في بيت سيده، كذب عليها وقال لها بأن زوجته توفيت، لأنه رغب في الزواج بها، لكي تعمل على فديته لأن قرار فديتها قد وصل للمدينة بثلاثة آلاف دوكة (ducat)، (وقرار فديتها كذبة من نسج خياله).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أكمل دومنغو مخططه، وتوجه إلى عجوز مورية جشعة وثرية، وقص عليها القصة المفبركة، وقال لها: "**هناك سلعة ستكسبين منها على الأقل ألفي دوكة**"، فسألت العجوز عن الكيفية، فدلها على الأسيرة الانجليزية-التي أحبها- فاشترتها بخمسمائة دوكة.

تم خداع كلٍّ من السيدة العجوز المورية التي كانت تنتظر ثلاثة آلاف دوكة، والإنجليزية الأسيرة التي كانت تتوق لنيل حريتها والذهاب إلى البلاد المسيحية، بعد مدة أنجبت الانجليزية ولدين من دومنغو، وعلى إثر هذا اكتشف خداع دومنغو، فأراد سيده شعبان غالان آغا معاقبته ولكنه عفا عنه بعد ذلك، فوجد دومنغو روسية أتى بها إلى الحمام حيث توجد الكنيسة الكاثوليكية، وأراد العودة إلى حياة التدين وأن يعيش مثل رجال الدين العبيد، غير أنّ الإسبانيين والبرتغاليين العبيد الذين يعرفونه رفضوا ذلك، بحجة أن دومنغو متزوج، واشتد الخلاف بينهم جميعا.

عرضت قضية دومنغو على أسقف سبتة (Ceuta)، لأنّ مدينة الجزائر تقع في نطاق أبرشيته، ثم عرضت أيضا على رجل دين آخر من روما إيطالي الجنسية، كان قد حلّ في مدينة الجزائر بغرض افتداء بعض الأسرى، فأمر هذا الأب الإيطالي دومنغو بأن لا يتلو القداس، لكن بإمكانه الحضور إلى الكنيسة. وكان دارندا يراه منذ ذلك الحين يغني في الكنيسة مقابل بضعة نقود (E.D'Aranda, 2004, pp109-113.)، يتضح لنا من خلال هذه القصة أن دارندا خادم وفيٌّ لمسيحيته، فهو لا يقبل التخلي لقس عن الحياة الدينية مقابل الحياة الدنيوية، ولا مجال عنده للتغير والتبدل فهذا أمر مقدس. والمثير للانتباه أن هناك العديد من رجال الدين المسيحيين من أنكروا مسيحيتهم واعتنقوا الدين الإسلامي؛ من أمثال الأب جوزيف (Josef)، ومن دون شك فهذا كان مصدر خوف لرجال الدين والكنيسة على حد سواء.

2.3. ثبات أسيرة مسيحية على إيمانها

لم يذكر دارندا اسم هذه الأسيرة المسيحية ولا بلدها ولا حتى المنطقة التي انحدرت منها، واكتفى بتشبيهها بمادلين الثانية (La Seconde Madeleine)، فقد تمّ أسرها في سنة 1641 رفقة رجل مسنّ إسباني في عمر السّبعين على متن قارب إسباني، لكن على غالب الظن أنها إسبانية، وكانت هذه الأسيرة من نصيب زوجة الباشا، بعد خمسة أيام من أسرها اكتشفت زوجة الباشا أنّ هذه الأسيرة بارعة في الخياطة والتطريز وبعض الأشغال اليدوية، وعدت السيدة زوجة الباشا هذه الأسيرة بجبال من ذهب إن أنكرت إيمانها المسيحي وصارت تركية-أي مسلمة-، فرفضت هذه الأسيرة طلب سيدتها وأصرت على عدم التخلي عن إيمانها، فتعرضت لعقوبة من سيدتها بثلاثمائة ضربة بالعصا، إلا أنها ثبتت على إيمانها، وجرّدت من ملابسها وأعطيت ملابس تركية، فلبستها معلنة أمام الله أنها تلبسها لتستر جسمها وليس لتغيير دينها (E.D'Aranda, 2004, pp117-118).

يبدو أنّ في هذه القصة مبالغة، وهي مثال قوي وجريء على خدمة دارندا للدين المسيحي وتعصبه له، فنحن نعرف قول الله عز وجل:﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 256]، أي عدم استطاعة أي شخص كان إرغام الناس على اعتناق دين معين، وهذا الأمر لا يغيب عن أذهان المسلمين والمسلمات، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان رجال الدين المسيحيين يتخوفون من اعتناق المسيحيين والمسيحيات الدين الإسلامي، وهذا ما حدث فعلا عن قناعة وعن طيب خاطر وليس إكراها وغصبا، فالكثير من المصادر الأجنبية تقر بحق ممارسة أي شعيرة دينية في الجزائر خلال العهد العثماني، حيث يعترف القنصل الفرنسي سيزار فيليب فالييز (Sesare Philippe Valliere) بهذه الخاصية ويقول كل الديانات مسموح بممارستها في الجزائر، يمكن لأي شخص ممارسة شعائره دون خوف من الإزعاج (سيزار فيليب فالييز، 2022، ص47)

3.3. حماسة حكيمة وحماسة متهورة

حدثت وقائع هذه القصة في مطمور تطوان (Tétouane) بالمغرب، ومفادها أنّ موريًّا دخل إلى المطمور، وكان يحمل في يده مجسم صورة السيدة مريم في قطعة خشبية، استولى عليها من سفينة مسيحية، فعرضها للبيع على الأسرى، والذين أرادوا منحه سكة ذهبية حتى لا تلقى ازدراء أو مهانة، اكتشف هذا الموري حماسة المسيحيين فطالب بأربعة أضعاف المبلغ؛ أي أربع سكات ذهبية، وإن لم يحصل على مراده فإنه سيقدم على حرقها.

تدخل إمانويل دارندا وقال لهم: "**هذه الصورة المجسمة لا تساوي الكثير...، حماستكم جيدة، لكن عندما يخرج هذا الموري من المطمور بأربع سكات ذهبية عن مجسم لا تصل قيمته أربعة ريو (Réaux)، سيعلن في جميع أنحاء المدينة بأنّ المسيحيين مغفلون**"، فتلقى دعما من رجل دين من الدومينكان (Dominique)، وكانت له حماسة حكيمة، فقال رجل الدين هذا للموري: "**تريد باتاغون(patagon) عن هذا المجسم سأمنحك إياه، وإلاّ اذهب وافعل به ما تشاء، وانسحب من هنا، أو ستتعرض لألف ضربة من المسيحيين**".

إن حصل الموري على أربع سكات ذهبية، فالأسرى فقدوا نقودهم، والموري ضحك عليهم، والدين الكاثوليكي احتقر، لكن حماسة هذا المتدين المصحوبة بالحذر حافظت على نقود الأسرى، وأخافت الموري والمحمديين بأن شرف الكاثوليك لا يتمثل في مجسم مثلما يعتقد الجاهلون الوثنيون والزنادقة (E.D'Aranda, 2004, pp141-142.)، إن حدثت وقائع هذه القصة مثلما رواها دارندا مع موري جشع، فليس كل المسلمين كذلك، لأن الإسلام والمسلمين يحترمون مريم البتول وابنها نبي الله عيسى عليهما السلام، ويكفيهم شرفا أن في القرآن الكريم سورة باسمها وهي سورة مريم، ترتيبها في القران19، وعدد آياتها98، يقول المولى عز وجل في محكم التنزيل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [القرآن الكريم، سورة مريم، الآيات16-19]، ونعتقد جازمين أنّ هذا

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

كان يجهله دارندا والكثير من أمثاله المتعصبين للدين المسيحي.

3. 4. متدين أنكر إيمانه لضعفه كونه أسيرا في الجزائر وصار شهيدا بعد توبة

حدثنا دارندا عن رجل دين إسباني كان اسمه جوزيف (Josef)، أنكر إيمانه المسيحي واعتنق الدين الإسلامي، واختار اسم يوسف، قال دارندا ربما جذبته الحياة التي يسمح بها القرآن، صار محمديا، ففرح به المور والأتراك على حد سواء، فوضعوه فوق حصان وكان يحمل سهما في يده، طافوا به في كل طرق المدينة وأزقتها، وكأنه منتصر، وكانوا يستهزئون بالمسيحيين، ويقولون لهم: "**هذا هو أبوكم الكبير الذي تحترمونه**"، مما تسبب في استياء الكثير من المسيحيين الكاثوليك، الإصلاحيين والمنشقين.

في تلك الأثناء حل في مدينة الجزائر رجلاَ دين من جنوة (Gênes)، واحد منهما يسمى فراتي آنجلي (Frater Angeli)، وقد كان معروفا، فأدرك الأبوان الخطأ الذي ارتكبه جوزيف والفضيحة التي ألحقها بالمسيحيين، فوجدا أنه من الأنسب الاعتراض على ما فعله جوزيف، رغم بؤس بقية المسيحيين الأسرى فهم مثابرون على الثبات والصبر في الدين المسيحي، وعلى إثر ذلك وعد جوزيف الأبوين على أن يترك الديانة المحمدية – الإسلام– وأنْ يتصالح مع الكنيسة المقدسة، كل هذا حدث سرا دون علم الأتراك، لأنه لو علم الأتراك بتدخل الأبوين في شأن إسلام جوزيف، وهذا خطأ جسيم، لتم حرقهما فورا.

تنفيذا لوعده، طاف جوزيف أرجاء المدينة مرتديا لباسا مسيحيا، الأمر الذي تسبب في دهشة الجميع، أخذ بعدها إلى المحاكمة، فاعترف بأنه مسيحي، وأنه رجل دين، ويريد أن يموت مسيحيا، وأن تغيير دينه واعتناقه للإسلام كان من دواعي الشيطان.

تلقى ضربات بالعصا على بطن قدميه، وهي العقوبة المسماة بالفلقة (falaca)، لكن عبثا، فقد أقرّ بمسيحيته، فحكموا عليه بالحرق حيا، في منطقة خارج باب عزون تم ربطه بإحكام، ووضع وسط كومة من الحطب، فطلب المسامحة من الله ومن المسيحيين الذين حضروا بأعداد كثيرة، تم إشعال النار وتصاعد لهيبها، ومع شجاعة هذا القديس الشهيد الذي طلب الصفح من الله على الفضيحة التي ألحقها بالمسيحيين، وطلب منهم الاحتفاظ بإيمانهم المسيحي، يقول دارندا: "**أحرق جوزيف وأنهى حياته، وأعطى للمسيحيين مثالا عن الدّين الحقيقي، وأنه مسيحي تائب**" (E.D'Aranda, 2004, pp185-188.)، نحن نعرف بأن الدين الحقيقي هو الإسلام، يقول المولى في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية85]، وفي موضع آخر: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية19]، والإسلام قد نادى به كل الأنبياء والرسل.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الفكرة الأساسية لكتاب دارندا فحواها ضرورة احتفاظ الأسرى المسيحيين بدينهم، والحيلولة دون اعتناقهم الدين الإسلامي، على الرغم من أننا نقر بالمبالغة الكبيرة لدارندا في ذكر هذه الأحداث والوقائع، لكن الخيال والوهم قد زادا من نسج الكثير من القصص التي وردت في كتابه أسرى الجزائر، الذين كانوا يحيون حياة رائعة في مدينة الجزائر، باعتراف كبراء كتابهم وشاهدي عيان من بني جلدتهم، على غرار وليام شالر القنصل الأمريكي في الجزائر الذي أقر بهذا القول الحقيقي والجميل: "**الأسيرات كن دائما يعاملن بالاحترام الذي يفرضه جنسهن، والأشغال التي كان يطلب إلى الرجال القيام بها لم تكن مفرطة المشقة...، والعبيد الموظفون في القصر أو الملحقون بالشخصيات الكبيرة في الدولة يعاملون بأقصى اللطف...، وباختصار فإنه وجد من العبيد من يغادر الجزائر وقلبه مفعم بالأسف والحسرة**" (وليام شالر،1982، ص ص99-100.)

5.3. فرنسي أراد أن يكون تركيا-أي مسلما- إلا أنه بقي مسيحيا رغما عنه

ذكر دارندا قصة أسير فرنسي اسمه جين (Jean)، والذي كان يبحر كثيرا مع سيده علي بيتشين على متن سفن القاليز في عمليات قرصنة، إلاّ أنّه لم يرغب في هذا العمل، فأخبر سيده برغبته في إنكار دينه، وهذا ما رفضه بيتشين مطلقا، لأن للأسرى المهتدين الذين يعتنقون الإسلام مكانة أفضل من باقي المسيحيين، ارتدى جين لباسا تركيا، واختار اسم مصطفى وذهب إلى منزل متعة سيده خارج مدينة الجزائر.

المكلفون بحراسة بيت السيد علي بيتشين كانوا يعرفونه جيدا، فاعتقدوا بأنّه أنكر إيمانه المسيحي بموافقة سيده، وعندما سمع بيتشين بأنّ الفرنسي في حديقة بيت المتعة خارج المدينة، امتطى حصانه وذهب إلى ذلك المكان، وعندما وصل هناك، بدأ ينادي ويصرخ: "**جين**"، فقدم جين أمام علي بيتشين وقال:" **اسمي هو مصطفى وليس جين**"، ورآه في ذلك اللباس، فنادى أربعة أسرى، أسقطوا الفرنسي على الأرض، فصارت يداه وقدماه على شكل صليب بورقون (Bourgogne)، وأعطوه بضع ضربات بالعصا، حتى صار يصرخ: "**أنا اسمي جين ولست مصطفى، أنا مسيحي ولست تركيًّا، هذا ما فعله بيتشين بشكل جيد، الذي يمكن القول بأنه أعاد مسيحيا إلى المسيحية بضربات قوية بالعصا**" (E.D'Aranda, 2004, p165.).

لعل هذا أيضا مثال قويٌّ وجريء على أنّ دارندا متعصب لمسيحيته ومدافع عنها، إذ يعترف بأن العمل الذي أقدم عليه بيتشين هو عمل جيد، حيث أبقى مسيحيا على ديانته، وقد كان ينعت بيتشين في كثير من المرات بالجشع وعدم التدين وحبه للمال، رغم أننا لا نثق في هذا التصريح ثقة كبيرة.

خاتمة

توصلت في ختام هذا المقال إلى مجموعة من النتائج التالية، يمكن أن أوجزها في الآتي:

- تأخر صدور كتاب إمانويل دارندا وطبعه مدعاة للشك والريب، فالشك رائد حكمة المؤرخ، من سنة إطلاق سراحه 1642 إلى سنة 1656، وهي السنة التي تمت الموافقة فيها على أول نسخة منه، يبدو لنا أن الأيادي الكنسية قد تدخلت في توجيه وتحوير العديد من أفكار الكتاب.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

- يحمل كتاب دارندا صبغة دينية مسيحية واضحة وجلية في كل معارفه ومعلوماته، ويعتد صاحبه بالدين المسيحي ويفتخر به، وهو عنده الدين الحقيقي، وهذا ما تجسد في تأليفه ونطق به قلمه، وقد أشرنا إليه سلفا.

- يقدح دارندا كثيرا في شخص علي بيتشين، ويصوره على أنه إنسان جشع، محب للمال، ليس له دين، ولا يرغب في اعتناق الآخرين الدين الإسلامي، وأنه إنسان لا يصلي ولا يدخل المسجد، لكننا من جهتنا نتحفظ من الإدلاء بهذه الشهادة، ونحن نعلم أن علي بيتشين الإيطالي الذي أسلم بنى جامعا في القصبة، وهاهو إلى اليوم يحمل اسمه، فكيف لرجل مسلم لا يصلي، يؤسس بيتا لله تعالى، كما أنه اشترى رجل دين من البادستان (سوق العبيد) ليرعى الشؤون الدينية للأسرى في الحمام.

- يروج دارندا للدين المسيحي، خصوصا على المذهب الكاثوليكي، للحيلولة دون اعتناق المسيحيين الأسرى للدين الإسلامي، والذين كانوا يعيشون حياة رائعة في الجزائر خلال العهد العثماني بأعداد كبيرة، لأن الدين الإسلامي دين الفطرة والرحمة والعدالة لكافة الناس، يقول المولى عز وجل في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية107]، عكس الأسرى المسلمين في أوروبا.

- من دون شك فقد كان دارندا يجهل القرآن الكريم، ولم يكن يعرف بأن في القرآن الكريم سورة اسمها مريم، ترتيبها 19، وعدد آياتها98، وأن مريم وابنها المسيح عيسى نبي الله عليهما السلام محط احترام وتقديس عند جميع المسلمين على مختلف مذاهبهم.

- يعكس كتاب دارندا مرحلة صعبة في تاريخ الجزائر الحديث، وهو يجسد بعمق ظاهرة الصراع الإسلامي المسيحي، التي رفعت رايتها الكنيسة، والتي يعتقد دارندا بأنها مقدسة، ولا يجب تجاوز تعاليمها ومبادئها.

- حدثنا دارندا عن قصص كثيرة جرت وقائعها في مدينة الجزائر ونواحيها، وإن كانت شخصياتها حقيقية وجدت في تلك الفترة خلال القرن السابع عشر، إلا أن المبالغة والإطراء المسيحي، واحتقار كل ما هو إسلامي، عثماني وعربي كان الصبغة البارزة لهذا التأليف.

- أن تأليف دارندا عن الأسر في الجزائر بقدر ما هو مهم فإنه خطير، ويتطلب الحيطة والحذر في أخذ معلوماته ومعارفه، ويجب مقارنتها بما ورد في مصادر أخرى محلية وحتى أجنبية، لخدمة الحقيقة التاريخية التي تكاد تختفي بين ثنايا مثل هذه المصنفات.

- من القضايا الهامة التي يزودنا بها كتاب دارندا، هي عملية استبدال الأسرى المسيحيين بالمسلمين الذين وقعوا في شباك الأسر لدى الأوربيين، وهذا قل ما نعثر عليه في المصادر، فقد تم استبدال كل من إمانويل دارندا (Emanuel D'Aranda)، جين بابتيست قالون (Jean Baptiste Caleon) وفيليب دو شارف (Philippe de Cherf Vlamertingue) بالأتراك الخمسة وهم: مصطفى انجلز (Mostapha Inglés)، إبراهيم رايس (Ibrahim Arrais)، علي تاغارينو (Ali Tagarino)، رود مصطفى (Rodes Mostapha) ومصطفى أويغا (Mostapha Oiga)، الذين كانوا في أحد سجون بروج (Bruges).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

– يشير دارندا كثيرا إلى اليهود في العديد من قصصه، ويقر بتحكمهم في العديد من عمليات الفداء التي كانت تحدث في الجزائر، خصوصا يهود ليفورن (Livourne)، كما يعترف بجشعهم وبخلهم، ويذكر نشاطهم في عملية تبديل العملات، وأنّهم أناس ماهرون في هذا الشأن.

– نشير إلى ضرورة البحث وتقصي الحقيقة عن شخصية علي بيتشين التي شوهها إمانويل دارندا من خلال وثائق أرشيفية أوروبية عامة وإيطالية خاصة، لأننا نحسبه من الشخصيات الإسلامية المهتدية، والتي قدمت للإسلام الكثير، شأنه شأن علج علي[9]، ومامي الأرناؤوطي (Mami Arnaaute)، هذا الأخير الذي وجدناه حاضرا وبقوة في تأليف المبعوث الدبلوماسي للمنصور الذهبي أبي الحسن التمقروتي إلى عاصمة الدولة العثمانية سنة 1589، الذي أثنى عليه كثيرا وأشاد بشجاعته وإخلاصه، وقد كتبه **بأرنط مم** (أبي الحسن التمقروتي، 1988، ص91.)

الهوامش:

(1) **هايدو: (Diego de Haedo)** إسباني عاش أسيرا في مدينة الجزائر بين 1578 و1581، أي في القرن السادس عشر، دوّن يراعه مؤلفين مهمين؛ **تاريخ ملوك الجزائر** و**طبوغرافية والتاريخ العام لمدينة الجزائر**، رغم أنه أظهر تعصبه للمسيحية وازدراءه لكل ما هو إسلامي وعثماني، إلا أنه قدم حقائق لا يمكن تجاهلها أو القفز عليها، حتى غدا من المصادر المهمة التي تؤرخ لتلك الفترة، للمزيد عن الإسباني فراي ديغو دي هايدو ينظر:

(F.Diego de Haedo, 2004, pp233-235.)

(F.Diego de Haedo, 2004, pp245-247.)

(2) **فندلين شلوصر: (Fend line Shlosser)** عسكري ألماني جاء بعد الحملة الفرنسية على الجزائر في سنة 1830، في إطار ليكن الاحتلال فرنسيا والاستيطان أوروبيا، فوقع أسيرا عند رجال المقاومة الجزائرية في نواحي الحراش، أخذ إلى مدينة قسنطينة وعاش هناك إلى غاية نجاح الحملة الفرنسية الثانية على قسنطينة في سنة 1837، بعدها أطلق سراحه، وعاد إلى بلده ألمانيا فكتب تأليفا في هذا السياق، تحدث فيه عن المرابط أحمد بن عيس، وعن أحمد باي، وعن بن زعموم، وعن الكثير من مشاهداته وانطباعاته عن الجزائر بين سنتي 1832و1837. للمزيد عنه ينظر: (فندلين شلوصر، 2007.) (سعيد بوخاوش،2014، ص ص 43-57.)

(3) **جيمس ليندر كاثكارت: (James Leander Cathcart)**1767-1843، أمريكي الجنسية، عاش كاثكارت مدة زمنية في مدينة الجزائر أسيرا بين 1785 و1796، وبالتحديد في قصر الداي، أي مقر إقامة الحاكم، فدون بعد أن أطلق سراحه كتابا في غاية الأهمية عن الحياة التي عاشها كأسير، وقنصل بعد أن تم تعيينه في هذا المنصب ممثلا رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في كامل المغرب، كان ملاحظا دقيقا ومسجلا بارعا للعديد من الوقائع التي كتب عنها بقلم رجل فاقد لحريته من جهة وموظف دبلوماسي متمرس بحكم خبرته من جهة أخرى. للمزيد عنه ينظر: (جيمس ليندر كاثكارت،1982) و (آمنة فاطمة زهرة العيايدة،2022، ص ص 105-106.)

(4) **نيلز نلسون موس: (Niels Nielsen Moss)** 1743-1769، بحار نرويجي وقع في الأسر لدى أتراك الجزائر من سنة 1769 إلى سنة 1772، تحدث في كتابه الذي ألفه بعد إطلاق سراحه عن الحملة البحرية الدانمركية –النرويجية على مدينة الجزائر في سنة 1770، والتفاف السكان حول الداي محمد عثمان باشا، كما تحدث عن الحياة اليومية للأسرى في مدينة الجزائر في أدق تفاصيلها. للمزيد عن هذه الشخصية ينظر: (نيلز نيلسون موس، (2019)، خلفية الكتاب.)

(5) **فيليبو بانانتي: (Filippo Pananti)** أسير إيطالي، وقع في الأسر لدى بحارة الجزائر في 1813، لمدة قصيرة بعدها أطلق سراحه بشفاعة من قنصل بريطانيا، ومكث مدة لا بأس بها في المدينة، طاف أرجاءها ولاحظ خصوصياتها، وعندما رجع إلى بلاده دون ما شاهد في تأليف باللغة الإيطالية، وترجم إلى اللغة الفرنسية تحت العنوان التالي:

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

Relation d'un séjour à Alger, contenant des observations sur l'état actuel de cette Régence.

للتعرف أكثر على فيليبو بانانتي ينظر: (عبد القادر فكاير،2022، ص27.)

(6) **علي بيتشين: (Ali pégelin)**، هو أمير البحر الذي تحدث عنه الأسير إمانويل دارندا كثيرا في فترة أسره بين 1640 و 1642، وينعته بالجنرال، لأنه وصل إلى أعلى رتبة في الجيش البحري، اسمه الأصلي ألبيريكو بيتشينيني، بحار إيطالي، ولد في قرية ميرتيتو بمحافظة ماسا، وشاء له القدر أن يقع أسيرا، فعاش في مدينة الجزائر واعتنق الإسلام في عهد فتح الله خوجة، اختار اسم علي بيتشين، يوجد الآن في مدينة الجزائر جامع من بنائه يسمى جامع علي بيتشين، يقع أسفل حي القصبة العتيقة، بني بطراز معماري منفرد جدا. (بوعلام حمدوش،2023.)

(7) **شعبان غالان آغا: (Saban Galan Aga)** من مواليد إسبانيا، على حدود البرتغال، هو ابن بحار، وقع في الأسر لدى الأتراك عندما كان صغيرا، اقتنع بإنكار إيمانه المسيحي، وهذا سهل الحدوث بالنسبة لطفل صغير، كما قال دارندا، لدى شعبان هذا أسلوب راق في التعامل مع كل الناس، وغالان اسم حربي، نشاطه الحربي في البر كما في البحر، وصل إلى درجة آغا أي رئيس مخيم. للمزيد عنه ينظر:(E.D'Aranda, 2004, pp143-144.)

(8) **سيرفانتس: (Servantes)** أسير اسباني عاش في سجون مدينة الجزائر بين 1575 و1580، تمكن من معرفة المدينة بأكملها وكذلك نصيبا من الثقافة العربية والإسلامية، الأمر الذي جعله يسجل هذا في تآليفه المتعلقة بسجون الجزائر وبالأسر، وبرواية الأسير، لأنه كان مهتما بقضية الفرار من مدينة الجزائر إلى وهران، والتي كانت وقتها محتلة من طرف اسبانيا، وهذا ما بدا في أعماله الأدبية. (عبيد إياد رضا،2022، ص ص 391-398.) و(Adriana Lassel,2012.)

(9) **علج علي: (Ochali)**، الإسبانيين ينادونه بأوشالي، وقد كان من الرياس المهمين جدا، ليس فقط في الجزائر بل في كامل الإمبراطورية، وتقلد زمام إيالة الجزائر بين 1568 و1570، إلى أن رقي إلى رتبة الأميرال الكبير للجيش العثماني، وكان هدفه تشكيل اتحاد ضد إسبانيا يضم المغرب، تلمسان، الجزائر وتونس إلى غاية طرابلس تحت السيادة التركية (Adriana Lassel, 2012, pp27-28.)، (عباس تركي، 2020، ص ص 107-125.)

قائمة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

-إياد، عبيد رضا، (2022)، "**الجزائر في كتابات سيرفانتس**"، الحوار المتوسطي، المجلد13، العدد1، ص ص391-398.

-بلعمري، فاتح، (قيد الطبع)، **قصص وعبر عن الأسر في الجزائر خلال القرن السابع عشر-من كتاب الأسير إمانويل دارندا-**.

-بوخاوش، سعيد، (2014)، "**قراءة في كتاب"قسنطينة أيام احمد باي1832-1837 للرحالة الألماني فندلين شلوصر وتعليقات أبو العيد دودو**"، المدونة، المجلد1، العدد1، ص ص43-57.

-تركي، عباس، (2020)، "**إضاءات حول شخصية بيلربي الجزائر قليج علي 1568-1587**"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المجلد2، العدد2، ص ص 107-125.

-التمقروتي أبو الحسن، (1988)، **النفحة المسكية في السفارة التركية**، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تقديم وتعليق: الأستاذ سليمان الصيد المحامي.

-حمدوش، بوعلام، (2023)، "**إيطاليا تهدي تمثالا له..من هو أمير البحر علي بيتشين**"، الجزائر الجديدة، 20يونيو.

-شلوصر، فندلين، (2007)، **قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837**، الجزائر، وزارة الثقافة، ترجمة وتقديم: د.أبو العيد دودو.

- العيايدةآمنة، فاطمة زهرة، (2022)، "**أهمية المصادر الغربية في كتابة تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830 (دراسة نماذج)**"، مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، المجلد7، العدد01 ، ص ص105-106.

-فالبير، سيزار فيلبيب، (2022)، **مذكرات قنصل فرنسا في الجزائر [1779-1781]**، الجزائر، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لجامعة محمد بوضياف، تعريب وتعليق وتقديم: الدكتور فاتح بلعمري.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

-فكاير، عبد القادر، (2022)، "**مظاهر من الحياة الاجتماعية في الجزائر من خلال كتاب (RELATION D'UN SEJOUR A Alger) لفيليبو بانانتي (Filippo Pananti) الأسير الإيطالي في الجزائر في سنة 1813**"، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد90، ص27.

-كاثكرت، جيمس ليندر، (1982)، **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ترجمة وتحقيق: إسماعيل العربي.

-نيلز، نيلسون موس، (2019)، **أسير نرويجي في مدينة الجزائر (1769-1772)**

، الجزائر، البدر الساطع للطباعة والنشر، ترجمة وتعليق: د. لخضر بوطبة، ط1.

-وليام، شالر، (1982)، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تعريب وتقديم وتعليق: إسماعيل العربي.

D'Aranda, Emanuel, (2004), **Les captifs d'Alger d'après la relation de Emanuel d'Aranda jadis esclave à Alger (XVII^{ème} siècle),** Algérie**,** Casbah édition.

Haedo, F. Diego, (2004), **Topographie et Histoire Générale d'Alger,** Algérie, édition Grand Alger Livre.

Haedo, F. Diego, (2004), **Histoire des Rois D'Alger**, Algérie, édition grand Alger livres, traduit de l'espagnol par Henri Delmas de Grammont.

Lassel, Adriana, (2012), **Cinq années avec Cervantès**, Algérie, édition Dalimen, traduit de l'Espagnol par Yasmina Madiba.

Pananti, Philippo, (1820), **Relation d'un séjour à Alger, contenant des observations sur l'état actuel de cette Régence**, France, Paris, le normant imprimeur, libraire, trad, de l'anglais obruat Elted.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)